محاولة شخصيّة لتدوين التجربة

ما هو استحقاق المثقف (ة) والباحث (ة) من صمود المعركة؟

. زينة الزعتري *

مازالت كمشةٌ من الياسمين ملفوفةً في ورقة محارم بيضاء، قدّمها أخي إليَّ قبل رحيلي عن لبنان في اليوم الثامن من العدوان الإسرائيلي على لبنان، وهي تَقْبع في صالون شقتي في منفاي شبه القسري/شبه الاختياري في سان فرانسيسكو.

ورقةُ محارم حَمَلْتُها من صيدا عبر جزّين ومشغرة وجبّ جنين، فكامد اللوز، فالمصنع حملتُها يوميْن في دمشق أنتظر موعدَ الطائرة، و٢٦ ساعةً في مطار باريس إذ لم يخوّلني السفرُ اللبناني أكثرَ من أرض المطار البارد أفترشُها ليلاً بانتظار طائرة الغد.

حملتُ كمشةَ الياسمين في حقيبة يدي ساعاتٍ في الطائرات المسافرة عبر المحيطات، وساعاتٍ أخرى في مطار آتلانتا أنتظر دوري أمام مفتّش الهجرة مع جموع العالم الثالث، مترقّبةً القرارَ لا أعرف ما أخشاه أكثر: أن يُسمح لي بالدخول، أو لا يُسمح؟ فهل أخشى أكثر أن أُمنع من الدخول إلى دولةٍ تَحْوي بيتي الحاليَّ وتَهْدم موطني - بالمعنى الجغرافي المحدود للجنوب اللبناني وبالمعنى الأوسع الذي يحوي فلسطينَ والعراقَ وغيرَهما؟ أمْ أن يُسمح لي بالدخول إلى دولةٍ تصدِّر الإرهابَ إلى العالم وتدَّعي العفةَ في الداخل، لأشاركَ في نفاقها وكذبها وإصداراتها؟

كمشةٌ من الياسمين مقطوفةٌ من عند الجيران، ونحن ننتظر سيارةَ الأجرة لتُقلّني إلى سوريا في ساعات الصباح الأولى، وطنينُ الـ MK (أو كما كنّا نسمّيها في الحروب السابقة بـ «أمّ كامل» مع أنّها لا تُشْبه أيَّ أمٍّ لا من قريب ولا من بعيد لأنّها تراقب لتَقْتل لا لتحمي) فوق رؤوسِنا. كمشةٌ من الياسمين تخفّف من المخاطرة المقبلة ومن هولِ ما قد يخبِّئه المستقبلُ لنا جميعًا، أصبحتْ - بعد قناة الجزيرة على شاشة الكومبيوتر والهاتف - الرابطَ الأساسيَّ بين منفاي وموطني وأهلي وشعبي.

قبل الرحيل عن لبنان وجدتُ أنّ هناك ما أستطيع أن أقومَ به، أن أساهم ولو معنويّاً في تحدّي العدوان وكَسْرِ الطوق فكان أن كتبتُ يوميّات الهجوم الصهيوني على لبنان، وفيها نقلتُ إلى أمثالي من الناشطين والناشطات في الولايات المتحدة، المبعَدين قسْريّاً أو اختياريّاً عن ديارهم، يوميّاتِ الحرب كما كنتُ أعيشها من صيدا، وكما كنتُ أشاهدها على شاشات التلفزة العربية، وكما كنتُ أقرأها في الصحف العربية ونقلتُ إليهم يوميّاتِ المهجَّرين الصامدين في صيدا، كما كنتُ أعايشُها وأسمعها من حولي لقد كان من الضروري أن أكتب أيضًا لأساهم في تغيير الصور النمطية عن شعبنا وتاريخنا ومقاومتنا وديانَاتنا وغير ذلك، ولأساهم - باللغة الإنكليزية - في حلّ الحصار المفروض على الإعلام في أميركا بشكلٍ خاصٍّ وفي العالم الغربي بشكلٍ عامّ.

وكان من الضروري بالنسبة إليّ أيضًا، كعَلْمانيةٍ مؤمنةٍ بالحريات الخاصة وبالعدالة والمساواة، وكناشطةٍ مدافعةٍ عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، أن أكتبَ وأحدِّدَ المواقفَ لكي لا يكون هناك لبسٌ بتاتًا. فالعنصرية التي تميِّز كيفيةَ تَعامُلِ الإنسان الغربي[1] مع عالمِنا تتغلغل أحيانًا إلى نفوس وأفكار الناشطين السياسيين ومَنْ يَعُدّون أنفسَهم تقدُّميين ليبراليين (لا راديكاليين) ممّن يطالبون بوقف الحرب على العراق وإنهاءِ احتلالِ فلسطين (وعادةً ما يَعْنون أراضيَ الـ ٦٧ فقط). فمن السهل على هؤلاء أن يناشدوا العالمَ ودولتَهم وقفَ الحروب والوقوفَ مع ضحايا الحرب من الأطفال والنساء

---

* - باحثة اجتماعية، وناشطة سياسية، وعضوة مؤسّسة في المجلس الوطني للعرب الأميركيين

١ - وهنا أعمّم، مع أنّ التعميم لا يَشْمل الجميعَ، وخصوصًا الحركات الراديكالية التي عادةً ما تكون مهمَّشةً وإنْ ليست هامشيةً

علّمتنا تجربةُ حزب اللّه أنّ الإسلام السياسي ليس أحاديّاً ولا معزولاً عن المقوّمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ومساكين العالم (كما يَكْتبون)، ولكنْ من الصعب أن يساندوا **حركاتٍ مسلّحةً** (لأنّهم مسالمون ضدّ العنف بالمطلق) حتى وإنْ كانت هذه الحركاتُ تدافع عن أرضها وحياتها. ومن الأصعب، وهم الليبراليون بامتياز، أن يدافعوا عن تلك الحركات إنْ كانت تمثّل ما يصنّفونه بـ «الآخر،» الآخرِ المتديّن، الآخرِ المسلم، الآخرِ العقائديِ، الآخرِ الذي لا يؤْمن بمفهومهم للمساواة والحريات الخاصة. وبالتالي كان من الضروري بالنسبة إليَّ تحديدُ مَنِ المعتدي ومَنِ المُدافع، مَنِ الإرهابيُّ ومَنِ الشعبُ الصامد الذي يدافع عن حقّه في أرضه ووطنه، ومَنِ الغاصبُ الذي يقضي على آمال وحريّات الرجال والنساء ومَنِ المتحدّي للهيمنة وكان من الضروري التذكيرُ بأنّ تاريخ الحركات التحرُّرية كلّها مضرَّج بدماء الشهداء، وبأنّ خيارَ المقاومة والتحدي يجب أن يكون هو الخيارَ الوحيدَ المطروح لأنّه خيارُ الحياة.

فالحرب، لي كما لغيري، كانت وماتزال قائمةً على كافة المستويات الإعلامية، والإيديولوجية، والعسكرية، والثقافية، والاقتصادية، وإلى ما هنالك وأنا، من موقعي في كلّ ما ذكرتُ آنفًا، وفي «قلب الوحش،» كنتُ أرى، كما كان يرى مَنْ يواكبني ويعلّمني ويعمل معي، أنّ الحرب على شعبنا لم تتوقفْ يومًا. في ذاكرتي التاريخية الشخصية، أعود إلى ولادتي مع الحروب والاحتلال في لبنان. وفي ذاكرة شعبي وأهلي، أعود إلى اتفاق سايكس ـ بيكو، وإلى وعد بلفور، وإلى ١٩٤٨، وغيرها من التواريخ التي تتالت. الخطر العسكري المباشر على أهلنا في لبنان كان قد انحسر بشكل كبير مع انتصار المقاومة في العام ٢٠٠٠، ولكنّ الخطر العسكري المباشر على أهلنا في فلسطين وفي العراق لم ينحسر كما أنّ الخطر الإيديولوجي والثقافي، المتمثّل في الهيمنة الأميركية والعولمة ولغةِ الحرب وصراع الحضارات، كان يمسّ بشكل كبير كلَّ المنطقة، وكذلك كلَّ أبناء وبنات الجالية العربية في أميركا وجاليات أخرى

إذن كانت الحرب، وماتزال، قائمةً وإنْ بآليات مختلفة. فالهجمة العسكرية تُعدّ تكثيفًا للصراعات القائمة (وذلك من دون التقليل بتاتًا من هول الحروب الفعلية). وعليه، فقد كنتُ أرى دوري، كباحثة وناشطة من أجل العدالة والمساواة، أن أحارب بكلّ ما أوتيتُ من قوةٍ الهيمنةَ الثقافيةَ / الاقتصاديةَ / السياسيةَ، المتمثّلةَ في السياسة الأميركية (المحلية والخارجية) والكيان الإسرائيلي وفي كلّ مَنْ عيّنتْه هذه القوةُ حاكمًا علينا يساهم في إفراغ المنطقة العربية من أيّة كرامةٍ وثقافةٍ ومقوّماتٍ فعليةٍ للعدالة والديموقراطية والحرية.

هكذا كان من الضروري تحدّي الفكر الذي يعمّم الأصوليات الإسلامية ويضعها في كفّ الإرهاب. فلقد علّمتنا تجربةُ حزب اللّه في لبنان أنّ الإسلام السياسي ليس أُحاديّاً، ولا معزولاً عن المقوّمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. إنّه ليس أصوليّاً أو سلفيّاً بالمعنى البحت أو الرجعي، بل منبثقٌ من واقع معاصرٍ محدَّدٍ، له ملامحُه الواقعية، يتغيّر ويتجاوب مع المحيط النابع منه. ومن الضروري أيضًا تحدّي آليّات الإعلام والبحث المهيمنة التي تدأب على نفي الواقع السياسي الذي أفرز المقاومةَ اللبنانية والمقاومةَ الفلسطينية، وتحاول أن توهم العالم بأنّ حزبَ اللّه و«حماس» مندفعان بإيديولوجيات دينية، غيرِ عقلانية، تَرفض الحرياتِ والمساواةِ، وتكره الحضارةَ الغربيةَ التي تمثّل «الديموقراطية » ورغم أنّ هناك عواملَ عديدةً أدّت في السنوات الأخيرة إلى أن تصبح المقاومةُ اللبنانيةُ مقاومةً إسلاميةً، إلاّ أنّ هذا لا يلغي كونَها مقاومةً منبثقةً من شعب وأرض وواقع سياسي ومن ثمّ فإنّ الاختلافات الإيديولوجية قائمةٌ ولكنّها جميعُها تواجه التحدّيات في معترك الممارسة الديموقراطية من أجلِ بناءِ مجتمعٍ أفضل للجميع

❖ ❖ ❖

لدى دخولي مجدّدًا معترَكَ الساحة الأميركية، كان لا بدّ من العمل على تثقيف الناشطين بتاريخنا الممتدّ إلى ما قبل ١٢ تموز ٢٠٠٦، وإلى الحديث مجدّدًا عن أطماع إسرائيل وأميركا وأهدافهما في المنطقة. لكنّنا كنّا نرى أنّ أبواق الإعلام الغربي تَبْحث بشكل دؤوب عمّن يتحدّث بصوت الاستعمار الجديد و«الشرق الأوسط الجديد» و«الديموقراطية الجديدة،» أو يتحدّث من دون أيّة مسؤولية ومراعاة لواقع المعركة، أو بمنطق «الاستعمار الذاتي» (كما يسمّيه فانون) الذي يَفْرض علينا التمثُّلَ بالمستعمِر وكرهِ الذات العربية أو الإسلامية. فتصبح منى فيّاض المتحدِّثة الرسمية باسم الشيعة، ويصبح فؤاد نجم الناطق الرسمي باسم العراقيين، وغيرهم كثيرون ومن هنا تأتي مقولةُ إنّ لبنان «قويٌّ في ضعفه،» وإنّ علينا ألاّ نتحدّى «سي السيّد» لأنّنا لسنا «قدّه،» من دون التنبُّه إلى أنّ حياة «سي السيد» مبنيةٌ على إلغائنا ثقافيّاً وحضاريّاً وفعليّاً. لذلك تبقى ضرورةُ أن يسجِّل الباحثون تفاصيلَ هذه المرحلة بوعيٍ سياسي، وبالتزامٍ بالفكر التحرُّري

❖ ❖ ❖

مازلتُ أنظر إلى كمشة الياسمين التي تجسِّد علاقتي بهذه الأرض رغم انفصالي الجغرافي عنها، وأفكّر في معنى الصمود من الخارج. وبرغم القلق على مستقبلنا، وبرغم التعاطف العميق مع كلّ مَنْ خسر أبًا وأمّاً وابنًا وابنةً أو زوجًا وزوجةً، وكُلِّ مَنْ خسر أرضًا أو بيتًا أو رزقًا، إلاّ أنّ روح التحدِّي والصمود التي بُثّتْ فينا خلال هذه الحرب الأخيرة ذاتُ أبعاد كثيرة على مستقبل شعوبنا وعلى مسار المخطط الأميركي للشرق الأوسط الجديد. وعليه، فثمة ضرورةٌ لحماية الإنجازات التي حقّقتْها المقاومةُ وصمودُ شعبنا، والمثابرة على التحدِّي والتنظيم بشكل أكبر من السابق. وهنا يأتي السؤال عن دور اليساريين والمثقفين والباحثين والكتّاب: فما الذي استطاعوا تحقيقَه خلال هذه الفترة، وما الذي يَعْملون من أجله في الفترة المقبلة؟

من الضروري أن تَنْهض هذه التياراتُ من أجل تشكيل تكتُّلات وتحالفات تتحمّل مسؤوليتَها وتستطيع مواجهةَ الحروب القائمة والقادمة فبعد أنْ أعلنتْ فخامةُ جامعة الدول العربية ما كان يَعْرفه كلُّ شخص في «الشارع العربي» (كما يحبّون أن يسمّوه) من فشلِ لمسيرة السلام التي فرضوها علينا باحتقارِ دماءِ الشهداء وسلاسلِ المعتقلين، فإنّ علينا ألاّ نَسْمحَ بأن نعود إلى طاولة المهانة لنتحاور مع من اغتَصَبَ أرضَنا، وألاّ نوافق على من ينتحلون صفةَ تمثيلنا في المجالس العالمية وفي الإعلام وهم يَصْبغون يدَهم في دم الضحية. بل لا بدّ من أن نستمع إلى نداءات مئات المثقفين والمثقفات ومئات المناضلين في السجون والمنافي وفي الميادين، ونعيدَ رسم معالم عالمنا كما نريدها نحن فقد رَسَمَتْ هذه الحربُ معالمَ المعاركِ القادمةَ، ومن الضروري أن نقف جميعًا أمام مسؤوليتنا.

الولايات المتحدة